

ثورة

في يوم من الأيام، جاءتني رسالة من فريق تحرير مجلة، تصدر باللغة الإنجليزية، من المجلات التي كنت أنشر بها مقالاتي الشهرية. كان العدد الأخير للمجلة، وعلى الرغم من توقفي عن الكتابة، طلبوا مني المساهمة بمقال أخير لوداع المجلة، وتركوا لي حرية اختيار الموضوع. فكرت كثيرًا! كنت ما زلت زاهدةً في الكتابة عن الحب والعلاقات العاطفية. نظرت إلى رضيعي، وقد أتم شهره الخامس، وأصبح حقًا نور عيني وحب حياتي، وفجأة بدأت أكتب المقال.

كتبت مقالًا يحمل غضب سنوات الطفولة والمراهقة تجاه المدرسة والمنظومة التعليمية! وجدتني أعبر عن رفضي للمنافسة والمقارنة والاختبارات ومفاهيم النجاح والفشل. رفضت أيضًا ضياع الطفولة في الفصول «المكممة» التي لا تدخلها الشمس، وفي الأوتوبيسات والسيارات في زحمة المواصلات بين البيت والمدرسة. انفجرت نائرة ضد القوالب والبرمجة وقتل التفرد وتجاهل المواهب والميول. ختمت مقالتي قائلةً: إنني لا أريد أن يذهب ابني إلى المدرسة ولا أعرف ماذا أفعل.

نُشر المقال وأغلقت المجلة أبوابها. أعدت نشر المقال على صفحتي في الفيسبوك وكان من الطبيعي أن أواجه بالسخرية أو اللوم على حرمان طفلي من بيئة المدرسة. تعليقان فقط استرعيا انتباهي، واحد ذكر «المونتيسوري» والآخر ذكر «التعليم المنزلي». بحثت، باللغة الإنجليزية، عن الموضوعين وانشرح قلبي!

تواصلت مع صديقتي التي ذكرت «المونتيسوري» وتحدثنا طويلاً عن دراستها لهذا النهج. انتهت المكالمة بترتيب لزيارتها لي. مريوم، أو أكثر، وجاءت صديقتي، كما وعدت، وفي يدها كتاب مصور عن المونتيسوري وقائمة بالكتب التي سأحتاجها لفهم الفلسفة التي دخلت قلبي مباشرة. طلبت الكتب من على موقع «أمازون»، وانتظرت وصول الشحنة بفارغ الصبر. وصلت الكتب وبدأت في التهامها! كنت جائعة نهمة وجاءت كلمات د. «ماريا مونتيسوري» لتشبعني وتملأ الفراغات بين أسئلتي.

أسست د. «ماريا مونتيسوري» نهجها على حب الأطفال واحترامهم، وأحاطت نموهم العقلي والجسدي والعاطفي والاجتماعي واللغوي والحياتي بهالة من الانبهار والقدسية، انعكست على جميع الأنشطة التي ابتكرتها لتلائم مراحل نموهم المختلفة.

أياً كان شكل ولادة الطفل، دخوله المجال الأرضي يكون صادماً ومؤلماً بالنسبة له! عليه التنفس لأول مرة وإلا اختنق! عليه البحث عن الطعام وطلبه وإلا مات جوعاً! يتعلم المص والابتلاع والهضم والإخراج لأول مرة! يدرك ملمس ورائحة الأشياء والبشر والأسطح! تصدمه الأصوات والأضواء والوجوه! لا يعرف أحداً ولا يتذكر أي شيء سوى الحنين لرحم أمه!

عزيزتي الأم، عزيزي الأب لا تستكثرا البكاء عليه! لا تتركوه يبكي وحده!

تحدثت د. «مونتيسوري» بالتفصيل عن حياة الطفل كجنين وعند الولادة في كتابها The Absorbent Mind ودعت الأهل للتخفيف من صدمة دخول الطفل عالم البشر بالنصائح التالية:

- إضاءة خافتة قدر المستطاع.
- أصوات قليلة وخفيفة في بيئة الطفل.

- التقليل من الروائح الصناعية حوله - العطور والمعطرات كمثال.
- توفير الحضان لأطول وقت ممكن - بدلاً من تركه على السرير أو أي سطح آخر.
- توقع وتفهم عدم انتظام مواعيد نومه وأكله أول ثلاثة أشهر.